في الفلسفة الإسلامية

ابن باجّه

للأستاذ عمر الدسوقي

لمحة تاريخية

فتح العرب الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير ، وظلت الأندلس ولاية تابعة للبيت الأموي في دمشق ، ولما سقطت دولة بني أمية ، وأسس بنو العباس ملكهم في بغداد ، وأخذوا يضطهدون الأمويين ، فرّ الأمير عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل إلى الأندلس في سنة ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م . وقد أفلح في تجديد ملك بني أمية بالأندلس ، ولكنه لم يتسم هو أو خلفه بلقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين ، وإنما كان ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ و ٩١٢ — ٩٦٠ م ، وظلت الخلافة قائمة حتى سنة ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م حين غُلب الأمويون على أمرهم وانتشرت الفتن في البلاد ، وضرب البربر قرطبة ، ومن ثمّ استقل كثير من الأمراء بمقاطعات صغيرة ودعوا بملوك الطوائف : كبني عباد بإشبيلية ، وبني الأفطس ببطليوس ، وبني ذي النون بطليطلة ، وبني هود بسرقسطة ، وبني عامر ببلنسية ، ومجاهد العامري بجزر البليار

وفي ذلك الوقت قامت في المغرب ثورة تدعو إلى استقلاله عن الأندلس ، وانفرد بالحكم فيه المرابطون . وقد حدث أن دعا ملوك إشبيلية المرابطين لنجدتهم في بعض حروبهم ضد الفرنجة ، فأعانوهم ثم تغلبوا على بقية الأندلس وظلوا يحكمونها أكثر من نصف قرن حيث ذهب ملكهم في بلاد المغرب على يد الموحدين الذين ورثوا عنهم الأندلس وحكموها مدة قرن من الزمان ١١٤٩ م — ١٢٣٢ م ؛ وبعد سقوط هذه الدولة عادت الأندلس إلى التفرقة والانقسام ، ثم أخذ ملك حكامها يتقلص تدريجياً إلى أن أجلى العرب عن غرناطة آخر حصونهم سنة ١٤٩٢ م

أما الحالة الفكرية فكان المغرب في أثناء حكم الأمويين يعتمد على المشرق في كل شيء تقريباً من الناحية العلمية ، وكان يستعد للنضوج الفكري ، وقد اجتهد الأمويون ولا سيما في خلافة الحكم بن عبد الرحمن ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ في جلب كثير من الكتب الثمينة التي ألفت في الشرق ، كما كان علماء المشرق الذين ضاقت بهم الحال في بلادهم يجدون في الأندلس سوقاً رائجة لأفكارهم ومعلوماتهم ، وكذلك كان كثيرون من محبي العلم في الأندلس يقصدون الشرق ويردون العلم من منابعه الأصلية ، فيمرون بمصر والشام وبغداد والحجاز وقد يذهبون إلى فارس . على أن الحياة الفكرية لم تبلغ أشدها في المغرب إلا في عهد المرابطين ، ثم بلغت أوجها الذهبي في زمن الموحدين حيث ظهر ابن طفيل وابن رشد وابن زهر وغيرهم . ويجدر بنا قبل الكلام عن ابن باجة أن نبدي الملحوظات الآتية :

١ — كان المغرب بعيداً عن المنازعات الدينية العنيفة التي ظهرت في الشرق ، فلم يسد فيه إلا مذهب مالك ، ولم يكن فيه لا مجوس ولا زنادقة ، ولم يظفر فيه كثير من علماء الكلام والجدل . وكان أهم ما يعتني به أهله ولا سيما في عصر الأمويين الطب والرياضيات والتنجيم . وكان الناس مشغوفين بالشعر والتاريخ والجغرافيا ، ولم تكن موجة التفلسف قد غمرتهم وأفسدت عقولهم كما هو الحال في المشرق . هذه كانت حال الأندلس أول الأمر

٢ — ولكن نجد أن المذهب الظاهري الذي يمثله ابن حزم — وهو من أشد المذاهب ضيقاً — يسيطر على الأندلس ، حتى ترى كل من يفكر في الفلسفة يضطهد . فلما قدم عبد الله بن مرة القرطبي إلى بلاد الأندلس يحمل الفلسفة الطبيعية (التي يمثلها الكندي) في عهد عبد الرحمن الثالث أُحرقت كتبه أمام ناظريه ولهذا لم يجد الفلاسفة جواً من الحرية حتى ينشروا آراءهم . ولقد اضطهد ابن باجة وابن رشد من العامة والخاصة على السواء ؛ ولهذا أيضاً اتخذ فلاسفة الأندلس النظرية القائلة بأن الفلسفة لا تصلح للعامة وإنما هي وقف على الموهوبين من الخاصة ، وسنجد كذلك محاولتهم في التوفيق بين الفلسفة والدين

٣ — لم يوجد في الأندلس جماعة يقومون بالنقل والترجمة ويتقدمون بعرض الآراء الفلسفية كالعاقبة والنساطرة في الشام والعراق ؛ أما اليهود الذين ادعى كثير من المستشرقين بأنهم كانوا الواسطة في نشر الفلسفة بين مسلمي الأندلس فأثرهم ضئيل ، وهؤلاء كانوا تلامذة للمشارقة فتأثر باخيا بن باقودا بإخوان الصفاء وتأثر ابن جبرول وغيره بفلاسفة المشرق الإسلاميين[1]

وعلى العموم فقد كانت الحياة بالأندلس غير ملائمة لجو الفلسفة ، وكان الفيلسوف يشعر بوحشة نوعاً ما لشدة التعصب وضيق العقل

(١) أنظر دي بور ترجمة أبي ريده ص ٢٢٧

من هو ابن باجه

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجّه[1] ولد فى مدينة سرقسطة فى أواخر القرن الخامس الهجرى في ذلك الوقت الذى عصفت فيه ريح الانحلال بدولة بنى أمية بالأندلس، وشب أبو بكر والمرابطون يحكمون فى البلاد، فاتخذه حاكم سرقسطة أبو بكر بن ابراهيم صهر أمير المرابطين جليساً له ووزيراً مما أوغر صدر العساكر والفقهاء.[2] ولكن الأحوال فى سرقسطة اضطربت وهاجمها ألفونس الأول ملك أرجونة فسقطت فى يده عام ٥١٢هـ، ١١١٨م. فرحل عنها ابن باجه، وذهب إلى أشبيلية، واستقر بها وألف فيها بعض رسائله فى المنطق كما يقول مونك[3]. وقد فرغ من إحداها في شوال سنة ٥١٢ هـ، وتوجد فى مكتبة الأوسكوريال تحت رقم ٦٠٩. ثم قصد ابن باجّه مدينة غرناطة وأقام بها مدة، ومن ثم ذهب إلى بلاد المغرب. ولما مر بشاطبة اعتقله الأمير أبو إسحق بن يوسف بن تاشفين كما روى الفتح ابن خاقان بسبب لم يذكر ولعله الزندقة، ولكن ما لبث أن أطلق سراحه بشفاعة والد الفيلسوف ابن رشد

وروى أن أبا بكر بن يحيى بن تاشفين استوزر ابن باجّه عشرين سنة، ولكن « مونك » يشك فى ذلك لأن الحوادث التاريخية لا توافق هذه الوزارة؛ إذ أن أبا بكر بن تاشفين كان قد فر من فاس سنة ٥٠١ هـ ـ ١١٠٧م؛ وذلك قبل نزوح ابنه إلى بلاد المغرب فيظهر أن مسألة الوزارة هذه غير صحيحة

مات ابن باجه ولم يعدُ طور الشباب، وقيل إنه مات مسموماً إذ كاد له أطباء بلده حسداً منهم وحقداً. وكان ابن باجه قد منى بأعداء كثيرين، وكانت وفاته فى رمضان سنة ٥٣٣هـ ١١٣٨م بمدينة فاس، وكان قبره بجوار قبر القاضى ابن العربى

ومن أشهر أعدائه الذين حاربوه ورموه بالزندقة والكفر والخروج عن جادة الدين الفتحُ بن خاقان القرطبى صاحب « قلائد العقيان »؛ ومما قاله قادحاً فيه: « إن ابن باجه رمد جفن الدين. وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفاً وجنوناً، وهجر مفروضاً ومسنوناً، فاهيك من رجل ما تطهر من جنابة ولا استنجي من حدث، ولا أقر بباريه ومصوره ... نظر فى تلك التعاليم، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفض كتاب الله الحكيم، واقتصر على الهيئة: (الفلك)، وحكم للكواكب بالتدبير، واجترأ عند سماع النهى والإبعاد، واستهزأ بقوله تعالى: « إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّكَ إلى معاد »؛ فهو يعتقد أن الزمان دور، وأن الإنسان نبات له نَوْر، جمامه تمامه، واختطافه قطافه. وانتمت نفسه إلى الضلال وانتسبت، ونفت يوم تجزى كل نفس بما كسبت، فقصر عمره على طرب ولهو، وأقام سوق الموسيقى، فهو يعكف على سماع التلحين، ويعلن بذلك الاعتقاد ولا يؤمن بشىء قادنا إلى الله فى أسلس قياد، مع منشأ وخيم ولؤم أصل وصورة شوهها الله وقبحها[1] »

ولا شك عندى وعند كل ذى لب أن هذا كلام متحامل فيه كثير من لغو القول وسخف العقل وتحريض للعامة ضد الفلاسفة

منزلته

يقول ابن أبى أصيبعة عن ابن باجه: « كان فى العلوم الحكمية علامة وقته وأوحد زمانه. وكان متميزاً فى صناعة الطب، وكان متقناً لصناعة الموسيقى، جيد اللعب بالعود[2] »؛ وعده ابن خلدون من أكابر فلاسفة الإسلام بالأندلس، وشهد له ابن طفيل فى حى بن يقظان بالتقدم والفضل، كما أن ابن رشد أعجب به كثيراً وحاول شرح بعض كتبه؛ وعندنا أن لابن باجه ميزتين:

١ — إنه أول المشتغلين بالفلسفة فى الأندلس بعد أن ظلت كتب الفلسفة زمناً طويلاً مطمورة فى مكاتب المغرب، ولهذا كانت خطوته جريئة؛ إذ التلبة الفكرية كانت لرجال الدين، وهذا يعلل لنا ما لاقاه من اضطهاد وعداوة ظاهرة، ويفسر لنا ما قاله الفتح بن خاقان آنفاً

٢ — إنه أول فلاسفة الإسلام الذين حاولوا أن يبحثوا الفلسفة مستقلة عن الدين، وأن فى إمكان العقل الإنسانى أن يصل إلى المعرفة الحقيقية وكشف أسرار الوجود دون ما حاجة إلى التصوف والإجهاد بالعبادة

ومع ذلك لم يستطع ابن باجه أن يتم مؤلفاته لانشغاله بأمور الدنيا، ولأن المنية اخترمته وهو فى ريعان الشباب. واستمع لابن طفيل يقول فيه: « ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحذق منهم نظراً وأقرب إلى الحقيقة، ولم يكن فيهم أثقب ذهناً ولا أصح نظراً ولا أصدق روية من أبى بكر بن الصائغ، غير أنه شغلته

(١) الباجة بالتشديد كما قال ابن خلكان وصاحب نفح الطيب ومعناها الفضة بلغة نصارى الأندلس

(٢) قلائد العقيان للفتح بن خاقان

(٣) Munk فى كتابه Mélanges de phelosophie Juife et Arabe

(١) قلائد العقيان ص ٣٤٦ — ٣٤٧ (٢) طبقات الأطباء ص ٦٢

الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته . وأكثر ما يوجد له من التآليف إنما هى كاملة ومجزومة[1] » ؛ وقد تأثر به ابن طفيل فى حى بن يقظان تأثراً عظيماً ، وما حياة حى بن يقظان نفسه ووصوله إلى المعرفة الحقيقية فى جزيرته الخالية من السكان إلا محاولة من ابن طفيل للبرهنة على رأى ابن باجه فى تمكن العقل الإنسانى من كشف أسرار الوجود وحده

مؤلفاته

ذكر ابن أبى أصيبعة عدداً كبيراً من كتب ابن باجه وأهمها: شرح كتاب السماع الطبيعى ، قول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطو ، قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطو، ثم تعليقات على كتابَىْ الحيوان والنبات لأرسطو ، وله تعاليق على بعض المسائل الهندسية ؛ أما مؤلفاته فكثيرة منها : كتاب فى الاسطقسات : (النار والماء والهواء والتراب) وكلام فى البرهان، وكتاب النفس ، وكتاب اتصال العقل بالإنسان ، ورسالة الوداع وكلام فى الغاية الإنسانية ، وفصول قليلة فى السياسة المدنية ، ورسالة تدبير المتوحد ... إلى غير ذلك من الكتب

وليس لدينا وللأسف شىء من كتب ابن باجه ، ولقد أشار « مونك » إشارة موجزة إلى ما تحتويه رسالة الوداع سنذكرها فيما بعد ؛ ولخص أيضاً رسالة تدبير المتوحد ، أو نقلها عن العبرية رواية عن موسى الأربونى Moise de narbonne أحد فلاسفة اليهود فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وشارح رسالة حى بن يقظان . وقد ذكر بروكلمن رسالة مخطوطة فى مكتبة برلين حاول نشرها الدكتور فروخ[2] ، ولم ينشر منها إلا صفحتين هما عبارة عن جمل مقتضبة غير متماسكة . ويظهر أن موضوع هذه الرسالة هو الغاية الإنسانية ، كما أن هناك رسالة فى المنطق لابن باجه فى مكتبة الأسكوريال سبقت الإشارة إليها فى أول المقال ، وقد كشف أبو ريدة مترجم دى بور جزءاً من رسالة تدبير المتوحد فى المكتبة التيمورية بمصر (رقم ٢٩٠)[3]

١ — رسالة الوداع[4]

كتب ابن باجه هذه الرسالة لأحد تلاميذه وأصدقائه قبيل اعتزامه رحلة طويلة حتى يكون على بينة من آرائه إذا قدر لهما ألاّ يلتقيا . وأول ما يظهر لقارئ رسالة الوداع رغبة المؤلف فى إحياء معالم الفلسفة والعلم ، لأنهما فى رأيه جديران بإرشاد الإنسان إلى الإحاطة بالطبيعة ، وبهدايته بعون الله إلى معرفة ذاته ، وبالاتصال بالعقل الفعال الذى يفيض من الله . ويتكلم فيها عن خلود النفس البشرية ، وعن العوامل التى تؤثر فى الإنسان وتدفع العقل فى سبيل الفكر ، وشرح غاية الوجود الإنسانى وغاية العلم وهما التقرب من الله عز وجل ، وكلامه فى خلود النفس مبهم ، ويقول باتحاد النفوس[1] ، وقد أخذ بهذا الرأى ابن رشد وكان لرأيه أثر كبير عند الفرق المسيحية حتى اضطر القديس توماس وألبرت الكبير للرد عليه فى مؤلفات خاصة . هذا وقد عاب ابن باجه الغزالى وقال : إنه خدع نفسه وخدع الناس حين قال فى المنقذ من الضلال : إنه يستطيع أن يكشف العالم الحقيقى والعقلى ويرى الأمور الآلهية بالخلوة ويلتذ التذاذاً كبيراً

ومن هذا نرى أن ابن باجه يهاجم الغزالى بعد أن كان تأثيره عظيماً فى بلاد المغرب ، وبعد أن أسكت صوت الفلسفة فى المشرق ، ونراه لا يؤمن إلا بطريق العقل سبيلاً للوصول إلى المعرفة الآلهية

٢ — رسالة تدبير المتوحد[2]

ذكر هذه الرسالة ابن رشد فى آخر كتابه على العقل الهيولانى حيث قال : « أراد أبو بكر بن الصائغ أن يختط خطة للمتوحد فى هذه الأمة ، ولكنه لم ينجزها وكثير منها غامض ، وسنحاول فى غير هذا المكان شرح غاية المؤلف من هذه الرسالة لأنه أول من سار فى هذا المضمار ولم يسبقه فيه أحد »[3]. بيد أن ابن رشد لم ينجز وعده ولم يبق لنا إلا ما نقله مونك عن موسى الأربونى ، وهذا المخطوط الموجود بالمكتبة التيمورية وهو غير كامل

وقد قسم الأربونى هذه الرسالة ثمانية فصول ، ويظهر أن غاية ابن باجّة فيها هى إثبات قدرة الإنسان المتوحد المنتفع بحسنات

(١) حى بن يقظان طبعة دمشق ص ٦٦
(٢) مجلة الأمالى السنة الأولى عدد ١١ ص ٢٩
(٣) دى بور ترجمة أبى ريدة ص ٢٤٦ (هامش رقم ١)
(4) Munk, Mélanges p. 385

(١) مجمل هذا الرأى على حد ما ذكر ابن رشد : أن العقل الفعال يفيض بالصور والمعقولات من عند الله سبحانه ، ولما كان الله أزلياً كان العقل الفعال أزلياً كذلك ، لأنه جزء من الكون الذي يقول ابن رشد بأزليته ، وهذه المعقولات والصور التى يفيض بها العقل الفعال دوماً لا بد أن تعقل ولا تعقل إلا بانسان ، إذاً فأزلية العقل الفعال تستلزم أزلية الانسان (النوع الانسانى) ، ومعنى اتحاد النفوس أنها ممثلة فى العقل الفعال الدائم الخالد ، وأن الانسانية دائمة خالدة ، وأنها تتحد فى العقل الفعال

(٢) مونك ص ٣٨٩ (٣) المرجع ذاته

الحياة البعيد عن مفاسدها ، على الاتصال بالعقل الفعال بقواه الفكرية وحدها . ولا يوصى ابن باجة بالخلوة — كما يفهم من لفظ المتوحد — إنما يرشد الإنسان المشتغل بشئون الحياة إلى سبل الوصول إلى الكمال ، وهو يشير إلى إمكان ذلك سواء كان هناك رجل واحد أو عدة رجال فى درجة واحدة من الفكر ، وقد يستطيع هذا أهل بلد بأسره إذا كان تام النظام . ولم تخف على ابن باجة صعوبة هذا الأمر فأوصى المتوحد بالعيش فى أغزر المدن علماً ، أى فى أقربها إلى الكمال ، وأجمعها لأهل الفضل والحكمة . وسنعرض فيما يلى أهم ما جاء بهذه الرسالة نقلاً عن « مونك » مختصرين ما أمكن[1]

الفصل الأول

تكلم ابن باجة أولاً عن لفظ « تدبير » وأنه يدل فى أوسع معانيه على مجموعة من الأعمال ترمى إلى غرض معلوم ، فلا يمكن أن يستدل به على عمل واحد ، بل على جملة أعمال تنجز تبعاً لخطة معينة كالتدبير السياسى والحربى . وينبغى أن يكون تدبير المتوحد على مثال تدبير الحكومة الكاملة ، ومن علامات الحكومة الكاملة ألا يكون بها أطباء أو قضاة ؛ لأن أهل هذه المدينة لا يتناولون من الغذاء إلا ما يوافقهم ، وبذا تختفى الأمراض الناتجة من الغذاء ، وأما الأمراض التى تصيبهم بسبب عوارض خارجية فتزول بنفسها . ولما كانت العلاقة بين أهل المدينة بعضهم مع بعض أساسها المحبة امتنع الخلاف فاستغنى عن القضاة . والحكومة الكاملة تكفل للفرد أن يبلغ فيها أرقى منزلة من الكمال ؛ لأن الكل يفكرون بأعدل تفكير ، وينظرون أدق نظر ، ويطيع كل فرد ما تأمر به القوانين ، لأنه يكون عالماً بها ، وبذلك تخلص أعمال الإنسان من الخطأ والهذر والختل فلا يكون الناس بحاجة إلى الطب الأخلاقى وهو ما لا غنى للجمهوريات الناقصة عنه

(يتبع) (البقيه فى العدد القادم)

محمد السعوقى

(١) وجدنا فى كتاب تاريخ فلاسفة الاسلام للأستاذ محمد لطفى جمعة ترجمة لما ذكره مونك عن ابن باجة ونقلا لكتاب تدبير المتوحد ، ولكن من الأسف لم يذكر الأستاذ جمعة أنه نقله عن مونك ، كما أن ترجمته تدل إما على قلة اكتراث أو عدم فهم ، وذكر كذلك ما نقله مونك عن الفتح ابن خاقان وطعنه فى ابن باجه الذى نقلناه سابقا ولم يرجع إلى قلائد العقيان لينقل منه النص العربى فجاءت ترجمته مشوهة ، كترجمته لتدبير المتوحد ، وهذه زلة من الأستاذ كنا ننزهه عنها

خرسَـــلات ...

الغيرة

إنى لتدركنى الشفقة أحياناً على هذه الكلمة المفردة ، كما يشفق امرؤ ذو قلب على عزيز قوم ذلّ ، وغنىّ قوم افتقر . إن أحداث الزمان قد جارت عليها ، وإن الدهر القُلَّب الذى يتنكَّر لكل شىء قد تنكَّر لها . إنها كالموظف المعزول الذى لم يعد يظهر فى ديوان عمله ، أو كالعقد الثمين المتألق الذى لا يجد صدراً يزينه . إنها كالقلادة الرفيعة التى مات صاحبها وبقيت فى « مخلفاته » تندبه فى صمت ، وتذكّر به كلما رمقتها العيون !

لقد كانت « الغيرة » معنى مشرقاً فى صدور الرجال ، فأصبحت رسماً باهتاً فى بطون الكتب ؛ وكانت « مادة » ملموسة بارزة الأثر فى حياة الناس ، فأصبحت « مادة » قابعة فى قواميس اللغة !

لقد فتشت عنها فى نواح كثيرة من نواحى الحياة ، فلم أجدها

كنت أحب أن أجدها : لم أجدها فى البيت لأنى وجدت « المرأة » تحكم «الرجل» ، فلا يغار على حقه المغصوب ، ولا يألم لسلطانه المسلوب ؛ ولم أجدها فى الطريق ، لأنى وجدت المخازى تعرض على قارعته فى صور مألوفة ، وأشكال معروفة ، فلا يغضب عليها غَضِبٌ ولا يَحمَى بها صدرُ غِيار ! ولم أفتقدها بين سُمَّار الليل فى النوادى الآثمة والمجتمعات المتهتكة ، لأنى أعلم كيف تصرع هناك الفضيلة ويصفع الحياء ! ولم أجدها فى « مكاتب الموظفين » ، لأنى وجدت الأعمال فيها مهملة ، والأوراق مكدسة والناس على أبوابها يستصرخون ولا من يجيب الصريخ !

وأخيراً ، فتشت عنها عند الذين يتنادَوْن « بالإصلاح » ، ويتحلَّوْن « بالفضيلة » فلم أجدها : لم أجد من يغار على البرامج المعطلة ، والأمانة المضيعة ، والوعود المهملة ، والفساد الذي استشرى ، والنار التى تومض من خلال الرماد !

فأين — يا رب — أجدها ؟ أين « الغيرة » ؟ ! .

محمد محمد المدنى